

تقديم

على طائرة مصر للطيران إلى الولايات المتحدة الأمريكية في شهر مايو ٢٠٠٨، تقدم إلى بالسلام والابتسام في وجهى ... ولعله لاحظ أن سنوات العمر التى مرت غيرت من الملامح المختزنة في العقل الباطن، فبادرنى بالقول: عادل المعلم! وكأنها ضغطت هاتان الكلمتان مفتاحين من مفاتيح الكمبيوتر، فإذا بشاشة الذاكرة تنفجر فجأة على مخزون ضخم من الذكريات والمواقف، تمتد وتتراكم لتغطى أكثر من أربعين عامًا...

كانت بدايات معرفتنا في أواخر الستينيات من القرن الماضي، عندما كان عادل في آخر سنواته الدراسية في قسم الهندسة الميكانيكية بكلية الهندسة - جامعة القاهرة، وكنت في أول سنوات عملى مدرسًا بالجامعة إثر حصولى على درجة الدكتوراه من الكلية الجامعية في لندن بالمملكة المتحدة.

كان عادل مع أخيه الأكبر إبراهيم هما الجيل الثانى الذى يعده والدهما رائد النشر والثقافة الحديثة في مصر الأستاذ محمد المعلم. وكان تعارفى مع العائلة في ذلك الوقت سريعًا بفضل شخصية محمد المعلم - رحمه الله - والتى كانت تفيض بطيبة زائدة وتواضع جم وود غامر، لا ييخل به على أحد حتى ولو كان يقابله للمرة الأولى!...

كان من الطبيعى أن نتقارب ونتآلف وقد جمعتنا الهوموم المشتركة والإحباط القاسى بعد هزيمة ١٩٦٧، وسعينا الدءوب نحو ما يمكننا عمله، كل في مجاله. كأننا نريد أن نكفر عن نصيبنا من التقصير كأفراد في ذلك الجيل الذى داهمته تلك الهزيمة الشنعاء!

كنت في ذلك الوقت قد قضيت وقتًا في ترجمة كتاب عن «الاهتزازات الميكانيكية»، كتبه أستاذى الراحل «بيشوب» لشرح دقائق هذه المادة التى تعد من المواد الثقيلة - وربما أثقلها لدى طلبة الجامعة - لتلاميذ في المدارس الابتدائية، لا يزيد عمرهم عن اثنى عشر عامًا.

وقد علمت من «بيشوب» طيب الله ثراه أنه كتب هذا الكتاب منطلقاً من عقيدة راسخة، بأن أستاذ الجامعة الحق لا بد أن يكون كالمنارة، ترسل ومضاتها البراقة في كل اتجاه حولها مخترقة ظلمات البحر الدامسة، وأن ومضاته تلك لا بد أن تستمر طول الوقت تهدي القوارب الصغيرة كما تهدي السفن الكبيرة، رغم أن أحداً لا يعلم مَنْ سوف يصل على هديها، ولا متى سوف يصل إلى شاطئ نهاية الإبحار وبداية الانطلاق في أرض الله الواسعة! ومن نفس المنطلق، رأيت أن أبدأ حياتي الجامعية في مصر بترجمة كتابه إلى العربية، لعله يهدي قوارب الصغار من شبابنا في إبحارهم نحو المستقبل العلمى الذى ينشدونه.

أدى هذا الكتاب إلى تقاربى من محمد المعلم، وكان في ذلك الوقت صاحب دار القلم، وقال لى: إننى أذكره ب بدايات حياته عندما تخرج في كلية العلوم - جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢، وكان شاغله الأول هو إتاحة المزيد من العلم للمزيد من المصريين وقراء العربية، وكانت الكتب الثلاثة التى بدأ بنشرها في مجالات الذرة للدكتور مشرفة، والفلك للدكتور سماعة، والرياضيات للدكتور منتصر.

كانت تلك هى أولى خطواته في عالم النشر، الذى تطور إلى أن أسس دار القلم سنة ١٩٥٩، والتي آلت للدولة سنة ١٩٦٦، فأسس بعدها دار الشروق سنة ١٩٦٨.

توالت هذه الصور في ذاكرتى سريعاً، كما توالت الصورة الأحدث... افتتاح مكتبة لدار الشروق في لندن، أثناء عملى مستشاراً ثقافياً فيها سنة ١٩٨١، لنقل الثقافة العربية إلى العاصمة البريطانية... وسعيه لإصدار دائرة معارف مصرية على غرار دائرة المعارف البريطانية.

انتقل عادل ليجلس بجوارى في الطائرة، وبينما كان يزيح بعض الأوراق من الكرسى المجاور لى قال: ما هذا؟ وأجبتة هذه صفحات من كتاب ربما يظهر قريباً، فسأل: ما موضوعه؟ قلت له: الفيزياء وميكانيكا الكم.. وكانت إجابته السريعة: ألا زلت تعيش في عالمك المثالى؟! هل تعتقد أنه لا يزال هناك أحد يهتم بأن يقرأ - كمعلومات عامة - وإذا كان هناك من يقرأ، فهل سيقراً كتاباً عن الفيزياء وميكانيكا الكم؟ إن الشباب الآن في مصر والعالم العربى قد تغير، ولم تعد المعارف العامة، ولا الشؤون العامة، ولا حتى مجرد القراءة من شواغله.

فقلت: معك الحق، وأنا أتألم كلما اكتشفت مدى انصراف الشباب عن القراءة - حتى في تخصصاتهم - وضآلة معلوماتهم العامة، ودفاع بعضهم عن ذلك بأن الكمبيوتر والنّت كفيّلان بتوفير ما يريدون عندما يحتاجون!

فأجابني: نحن في طريقنا من مصر إلى بلد الكمبيوتر والنّت... وقد تندهش عندما تعلم أن ما قرأه الأمريكيون من الكتب في عام ٢٠٠٤ كان قيمته ٢٨,٦ مليار دولار(*)!... وأن في نيويورك وحدها، أكثر من عشرين فرعًا من سلسلة مكتبات بارنز آند نوبل... تتراوح مساحة الفرع منها من أربعمئة إلى ألف متر، أى أكبر من أى مكتبة في مصر... بأكملها... ولقد زرت كثيرًا منها... وفي كل مرة أجد المكتبة تشغى بالقراء كأنها خلية نحل... من التاسعة صباحًا حتى التاسعة مساءً، سبعة أيام في الأسبوع.

فقلت: ربما نوعية الكتب المعروضة في مصر، أو نوعية الثقافة المعروضة بصفة عامة، هى السبب، أو على الأقل أحد الأسباب.

فأجاب.. نعم أو افقك... فهى سبب وهى نتيجة أيضًا... فهى بمثابة المشكلة والعلاج... أو الداء والدواء... فمن ناحية، هى إفراز عقول المجتمع... وهى فى نفس الوقت العامل المهم فى التأثير عليه... فكأنها فقد المجتمع وجهته وقوته المحركة... فى سبيل من الأعمال والأفكار التى تعصف به من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين... وبالعكس، فى جو من الفراغ والخباء الفكرى... مع فقدان الثقة بالنفس، واهتزاز القناعة بالحاضر... وقلة أو انعدام الأمل فى المستقبل... وضياح الانتفاء للوطن.....

فقلت: صدقت، ولكن لا يزال لدى قدر من التفاؤل... يدفعنى إلى العمل الإيجابى للإسهام ولو بأدنى قدر فى عملية الإصلاح التى لا تتوقف فى الشعوب الحية... مهما كانت صعبة أو بطيئة... ومن هنا جاء انشغالى بكتابتى هذا الذى أرجو أن يشرح ميكانيكا الكم فى أبسط لغة لفائدة القارئ غير المتخصص...

ثم دعانى عادل لزيارته فى مكتبته فى مصر الجديدة بعد العودة... وفى مكتبته بمصر الجديدة، أخبرنى أنه بصدد نشر ترجمة كتاب عن طلعت حرب

(*) كتاب برتانيكا (٢٠٠٦) صفحة ٢٤٥.

يشمل جوانب عديدة من حياته لم تظهر حتى الآن، ولا يعلمها كثير من المصريين، وسألني إذا كان لدى اهتمام ووقت لمراجعة الكتاب وتقديمه للقراء، وأجبت على الفور بأننى لا يمكن أن أرفض طلبًا كهذا، فهو يتمشى مع ما أريده من إثراء المكتبة العربية بالدراسات الجادة.

أخذت منه الكتاب، وتركته وأنا أفكر طوال الطريق إلى منزلى، وأتأمل، فى تلك المصادفة التى قادت كتابًا عن طلعت حرب إلى مكتبة الشروق الدولية، ثم إلى ليرتبط اسمى به، لقد كان طلعت حرب الرائد الأول فى الدفاع عن الهوية المصرية والنهوض بها فى مواجهة غير المصريين من أصحاب الأموال والبنوك الأجنبية، والذين تعاونوا مع بعض كبار ملاك الأراضي لنزف ثروة مصر.

وعلى نفس الطريق، سار محمد المعلم الذى أصر على النهوض بقراء العربية، ثم كافح لنقل العربية إلى المجتمع البريطانى فى لندن سنة ١٩٨١، ليتسلم الراية بعده ابنه إبراهيم وعادل، ويستمران فى نفس الخط الوطنى لا يحيدان عنه، ولا يقتصر هذا النشاط الجدى على مصر وحدها، وإنما ينتقل إلى دول جنوب شرق آسيا.. إنها رسالة تستمر وتقوى؛ لأنها تنفع الناس فتبقى فى الأرض، ولا تذهب جفاء...

أما عن كتاب طلعت حرب، فقد جسد أمامى المثل العربى الشائع: ما أشبه الليلة بالبارحة!...

سيطر ذلك القول المأثور على تفكيرى طوال مراجعتى لهذه الدراسة المتميزة التى تتناول جهود طلعت حرب وكفاحه، فى فترة ربما كانت من أخصب فترات تاريخنا الحديث سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا..

ورغم أهمية تلك الفترة فى تكوين الدولة المصرية حكومة وشعبًا، إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن، فإن القارئ يتعجب أن تكون الجدليات الداخلية والضغوط الخارجية فيما يتعلق بمسيرة التنمية المصرية لا تزال تقريبًا كما هى، حتى ل يبدو لمن يتأمل فى أوضاعنا قليلًا أننا لم نستوعب دروس الماضى كما يجب، ولم نستخلص منها ما نواجه به متطلبات الحاضر، فضلًا عن ضمانات المستقبل...

وأنا لا أزال أؤمن إيمانًا راسخًا بأن مستقبل هذه الأمة مرتبط بالصناعة القومية الوطنية، وأنه برغم كل ما يقال، فإن الصناعة كأنشطة إنتاجية في شتى المجالات لم تحظ بالأولوية التي تستحقها في دائرة الاهتمام الحكومي، بل ربما تراجعت أولوياتها عما كانت عليه لتفسح المجال لأولويات أخرى ترتبط بمتغيرات عالمية خارجية أكبر مما ترتبط باحتياجات تنمية داخلية.

ولأن توفير التمويل اللازم لإنشاء صناعة وطنية لا يزال من أكبر العقبات التي تواجهها الصناعة في مصر، ولا يزال يخضع لاعتبارات ونقاشات شتى، فإن الارتباط بين الصناعة الإنتاجية والبنوك، أو الصناعة المصرفية، لا يزال هو التحدي الأكبر في عملية التنمية والتقدم.

ومن هنا تأتي أهمية تلك الدراسة التي تتناول فترة شديدة الخصوبة من التزاوج بين الصناعة والبنوك، ممثلة في إنشاء بنك مصر لتمويل الشركات الصناعية والإنتاجية أساسًا، وجهود مؤسسه الوطني العظيم محمد طلعت حرب في خوض معاركه مع خصومه ومعارضيه، وتعرض بالتفصيل لكل طموحاته وآماله وانتصاراته وانكساراته، والقيود التي فرضت عليه من الداخل والخارج أثناء مسيرته الكفاحية العظيمة.

وتتميز هذه الدراسة بالعمق وبالانتساع معًا، وسوف يلاحظ القارئ من مطالعته السريعة لها مدى التعمق الأكاديمي الذي ألزم الباحث به نفسه، والذي يتضح من النظرة الأولى لقائمة مراجعه، والتي تبدأ من ملفات تعداد مصر سنة ١٨١٢، مرورًا بملفات الأتبان الزراعية من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٩٤١، إلى أن تغطي عشرين صحيفة ودورية من الأهالي سنة ١٩١٤، إلى «البلاغ المصري» سنة ١٩٣٩، وأكثر من أربعين كتابًا عربيًا في مصر حتى ١٩٥٧، وأكثر من ٦٠ كتابًا أجنبيًا في أوروبا، إضافة إلى وثائق الحكومة البريطانية المنشورة منذ عام ١٩٠٠.

ولأن تاريخ نشر هذه الدراسة في أمريكا كان سنة ١٩٨١، فيجب التنويه بأن كل هذا الجهد في تتبع المراجع كان في وقت لا يستطيع الباحث فيه أن يشير إلى بحث في أطروحته إلا بعد أن يحصل عليه بالفعل ويقرأه، لا أن يقرأ عنه في الإنترنت ويضيفه إلى مراجعه، كما يشيع بكثرة في هذه الأيام! ومن هذه الناحية، فإن الدراسة تعطي نموذجًا للالتزام

الأكاديمي كدنا نفتقده بين باحثينا في مصر لعوامل كثيرة نتحدث عنها باستخفاف ولا ندرك خطورة أثرها علينا مستقبلاً!

وربما يتساءل القارئ: ولماذا كل هذا العناء في التعمق التاريخي والتفصيل المرجعي؟ والإجابة ببساطة: أن الباحث كان يريد التوصل إلى جذور الخلفية التي صنعت طلعت حرب وشكلته، فكان عليه أن يتناول نشأته من عائلة فقيرة لا تملك فداناً كاملاً من أراضي الشرقية، ثم انتقاله لقصر الشوق في القاهرة، ودراسته للحقوق التي ربحا وجهته اهتمامه إلى فرنسا أكثر من بريطانيا وتركيا واليابان، وإحساسه بالظلم الفادح الذي كان يتعرض له ملاك الأراضي البسيطة من البنوك الأجنبية والمرايين الذين وصلوا بنسبة الفائدة على ما يقرضونه لملاك الأراضي إلى ٣٠٪، حتى كان الملاك يضطرون لبيع أراضيهم لعجزهم عن سداد ديونهم، فتكونت رؤيته المستقبلية وقناعته الوطنية عن ضرورة إنشاء بنك مصري حارب في سبيله أكثر من تسع سنوات حتى تأسس سنة ١٩٢٠، ثم رؤيته التنموية الأخرى التي تمثلت في إنشاء أكثر من عشرين شركة، كانت أولها شركة المحلة للغزل والنسيج، التي كانت عاملاً مهماً في تحرير الاقتصاد المصري الذي كان يقوم على زراعة محصول واحد هو القطن الذي يصدر إلى إنجلترا واليابان، فقامت شركة المحلة للغزل والنسيج، وحررت البلاد من قبضة الدول الخارجية عليها عن طريق فرض أسعار تحكمية لتصدير القطن المصري إليها.

ولم يكن الطريق سهلاً أمام طلعت حرب؛ فقد كان يواجه تحالفات قوية بين بعض كبار الملاك المصريين وبين الجاليات الأجنبية المقيمة في مصر وأصحاب التطلعات السياسية، الذين لا يمانعون في السير مع السياسات الأجنبية التي لا تتخلى عن عاداتها في تقديم أقراسها مدهونة بالزبد والعسل حتى لا تظهر آثارها إلا بعد أن يبتلعها التابعون من ذوى الخبرة القليلة أو الرؤى القصيرة، وربما السذاجة الكبيرة.

حارب طلعت حرب أكثر من معركة على أكثر من جبهة، وكان عليه أن يهاجم، وأن يدافع، وأن يهادن، وأن يناور، وأن يساير، ولكن رؤيته الإستراتيجية كانت دائماً واضحة قوية أمامه، يتبعها كما يتبع البحار بوصلته مهما كانت الرياح عاتية والأمواج عالية، وكان يسعى دائماً إلى تنمية وطنية مصرية خالصة تجمع معها جيران مصر من الدول العربية،

ليحقق بها تكاملاً يواجه به الضغوط الأجنبية التي تظهر سافرة بعض الوقت ومغطاة بشعارات وادعاءات براقة مصطنعة أكثر الوقت.

إن هذا الكتاب يأتي في وقته ليملاً فراغاً ملحوظاً عن طلعت حرب في بلد طلعت حرب وبلغة طلعت حرب، وليقدم للمهتمين بتنمية هذا البلد ونهضته تجربة فريدة لا تتناول وقتها فحسب، بل ربما تتناول - ويا للدهشة والحسرة! - ما نمر به الآن بعد قرابة مائة عام من حدوثها!

د. إبراهيم فوزى

الأستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

وزير الصناعة الأسبق

نوفمبر ٢٠٠٨